# كلام في كلام

السحب تتكاثف، السماء رمادية، لا شيءَ أبدعُ من السماء الرمادية، توشك أنْ تمطر ولا مطر، تملأ النفس بالأمل والحياة ..

الساعة العاشرة صباحا .. ما هذا الزحام؟ أوليس الطلاب في مدارسهم وجامعاتهم والموظفون في أعمالهم؟ ما كل هذا الزحام؟ الناس كثروا جدا، لا أحب الزحام، إنه يعطل كل المصالح، كيف أصل في موعدي الآن؟ ليس أمامي إلا أن أستقلَّ سيارة أجرة، لعلي أصل في الموعد، أجل .. هذه واحدة فارغة.

– تاكسي .. العباسية؟

– تفضل.

فتح خالد باب السيارة وجلس بجوار السائق، رآه رجلا خمسينيًّا هادئًا، يميل جسمه إلى الامتلاء، أراد أن يمضي وقته فالطريق من المريوطية إلى العباسية ليس بالقصير، هو يعرف أن سائقي

التاكسي يحبون الكلام، يبدو أن طول جلوسهم خلف عجلة القيادة جعله مسلاتهم الوحيدة.

يا ترى في أي موضوع يمكن أن أحادثه؟

الطقس .. أجل الطقس يمكن أن يكون مفتاحًا للكلام، لكنَّ الطقس جميل ليس حارًّا ولا باردًا، نحن في شهر نوفمبر، الخريف ينشر أوراقه في كل مكان، ماذا عساي أن أقول؟ ومم أشتكي؟

أشتكي !! ولماذا أشتكي؟

هكذا ..

اعتاد الناس أن يفتتحوا الحديث بشيء مشترك، والمشترك بين المصريين شيء واحد .. هو الشكوى.

لا .. لا .. لا أريد أن أكون كباقي الناس .. يشتكون .. يشتكون .. يشتكون .. ثم إذا فكرتَ في إزالة أسباب الشكوى حاربوك .. هذه طريقة عبثية فاشلة للحياة .. أنا رجل فلسفة .. ينبغي أن أكون أرقى من هذا الهراء.

حسنا .. ما رأيك أن أحدثه في السياسة .. نعم .. السياسة أمر مشترك، الجميع اليوم يهتم بالسياسة ..

آهِ .. لكن من أين أبدأ؟

أنا لا أعرف اتجاه الرجل .. أهو مؤيد أم معارض؟

وماذا في ذلك؟؟ لكلٍّ رأيُه في النهاية.

يا عمُّ خالد استفق .. أنت اليوم في عالم الحيوان .. إن كان من المؤيدين فلن يترك لك فرصة لمعارضة، وسيعد أيَّ نقض لارتفاع الأسعار وانتشار البطالة خيانة وعمالة وكراهية للبلد، بل لا يبعد أن ينزلك من السيارة فوق كوبري أكتوبر ويقول لك: "لا أريد أجرة"، وأنا أخشى أن أتأخر عن موعدي.

أما إن كان من المعارضين فلا يبعد أن يشنف مسامعك بسيل من السباب البذيء والشتائم المقذعة.

لا .. لا .. أنا لا أريد أن أخرج عن هدوئي النفسي، فالمقابلة التي تنتظرني تحتاج إلى تركيز كبير، وهدوء أعصاب، سيترتب عليها تحديد مستقبلي المهني، يا الله أشعر أنني على أعتاب النجاح الذي انتظرته طويلا، سبع سنوات منذ أن تخرجت وأنا أسعى لهذا الهدف ..

تنحنح السائق .. فظنه خالد يريد أن يقول شيئًا .. لكنَّ نحنحته صارت سعالا .. واشتد السعال، حتى قلق خالد، وشعر بحرج شديد، أراد أن يواسيَ السائق، أراد أن يقول له: ألف

سلامة! لكنَّه تراجع، بدا له أنَّ ذلك غير كاف في هذا الموقف، ربما يعتقد السائق أنَّه يسخر منه، أو أنَّه لا يبالي به.

هل أعرِضُ عليه أن يذهب إلى الطبيب؟ ربما يكون قد ذهب بالفعل، وهو يسير على الدواء المكتوب، ربما لم يأخذ الدواء اليوم في موعده، لكن قد لا يكون قد ذهب إلى الطبيب، إذن أَعْرِضُ عليه أن يذهب إلى الطبيب بعد أن يوصلني .. ما هذه السماجة كيف تظهر له تقديم مصلحتك على صحته؟!

أوليس في إيصالي مصلحة له؟! ألا يحتاج إلى المال لكي يذهب إلى الطبيب؟!

بلى، ولكن عليك أن تكون أكثر تعاطفًا مع الرجل ..

لكن ها هو قد توقف عن السعال، يبدو أنَّه شيءٌ عابر، الحمد لله، لا داعيَ الآن لأن أتكلم في الموضوع.

إذن فيم أحادثه؟!

آه .. عرفت فلأكلمه في أنواع السيارات، يبدو أن سيارته هذه جديدة، فهو حديث عهد بشراء السيارات، وأنا أفكر في شراء واحدة قريبا ولا أدري أيُّ الأنواع أفضل .. لكنْ ربَّما يظنني أنظر إليه، وأنا علم الله لا أنظر إلى أحد أبدًا نظرة حسد، أنا ولله الحمد راض بما قسم الله لي .. لا أعترض على قدر الله في أحد ..

فكيف أحسده؟! لكنْ من يعي ذلك؟ الناس ليس لهم إلا الظاهر .. أجل وما المشكلة في السؤال؟ إنه مجرد سؤال؟ سأسأله عن نوع سيارته وهل هو جيد ومريح وما أهم مشاكله؟ وأسأله عن سعره وتسهيلات السداد؟ ولا تنس أيضًا أن تسأله إن كان الجديد أفضل أو المستعمل .. لكن بأيِّها أبدأ؟

يا إلهي ما هذا الزحام .. صف طويل من السيارات .. آه إنهم يصلحون الكوبري .. يا له من تعطيل!

فكرة .. فلأتحدث مع السائق عن إصلاحات الكباري المستمرة التي لا تنتهي .. شهور عدة مرت وهذه الأعمال قائمة في زوايا كوبري أكتوبر، وكلما أصلح جانب فسد بعد عدة أسابيع .. ما هذا الهراء .. من أين يُؤتَى هؤلاء؟ أَمِنَ انعدام الأمانة؟ أم من نقص الخبرة؟

ولكن ماذا عساه أن يقول؟

لن يخرج عن هذين الاحتمالين، وما الداعي إذن للسؤال والجواب؟! أهو مجرد كلام من أجل الكلام؟!

كل حياتنا أصبحت كلامًا في كلام، إذا سمعت عبارة فلابد من التعليق عليها بمناسبة وبغير مناسبة، بفهم وبغير فهم، بفائدة وبغير فائدة.

لكن أوليس التعليق مصدر قوة وحضور، وإبراز للشخصية، والسكوت يبدو كما لو كان عن عي وحصر، أو عن جهل وعدم معرفة، أو عن جبن وإيثار للسلامة ؟ وكلها معانٍ تأنف منها النفس وتسعى للتبرؤ منها وإن كانت متلبسةً بها.

أجل هذا منطق العامة والدهماء، أمَّا الإنسان المثقف من أمثالي فهو يعرف تمامًا أن السكوت من ذهب، وأن كثرة الكلام دليل على قلة العقل، وأن خير الكلام ما قل ودل، ليست هذه مجرد حِكَمٍ نسمعها ونرددها، بل هي تجارب نعيشها ونتعلم منها.

لكنْ ظريفٌ موضوعُ المثقف من أمثالي هذا، ألا تستحي من هذا التعالي يا رجل؟! وماذا صنع المثقفون أكثر من أن اتخذوا من الثقافة وسيلة للتقاتل على دنايا يتقاتل عليها غيرهم بوسائل أخرى؟!

سؤال وجيه: ما الفرق بين المثقف والبلطجي؟

أضحكتني ..

في الحقيقة لا أجد فرقًا أكثر من أسلوب نطق بعض الكلمات مع سجحات في وجه البلطجي، واستعمال للسلاح الأبيض في إخضاع الخصم، المثقف يقول ثقافة، والبلطجي: سآفة، المثقف:

تعليم، والبلطجي: علام، المثقف: صاحبي، البلطجي: ساحبي ...

لكن كثيرا من المثقفين يمتلكون أدوات أخرى للإرهاب الفكري، والانقضاض على الخصم بالضربة القاضية .. يعني يمكن أن تقول: بلطجة فكرية!

أفاق خالد من غفوة أفكاره على صوت سائق التاكسي وهو يصيح فيه قائلا: ماذا تقول يا أستاذ؟ بلطجة؟! أنا بلطجي؟! ألم تره كسر علي مرتين؟!

قال خالد في ذهول: أنا لم أتكلم!

***

تمت